



التحقير في التعبير القرآني دراسة دلالية في تفسير روح المعاني

أ.م.د. محمد هادي البعاج

جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية - قسم اللغة العربية

Mohammed.albaaj@uokufa.edu.iq

ملخص البحث

تنكير الاسم بدل تعريفه ، خامساً دلالة حرف الجر (من) ومجروره ، سادساً زيادة (ما) ، سابعاً خروج الاستفهام إلى معان مجازية ، ثامناً خروج فعل الأمر إلى معان مجازية ، تاسعاً الإبهام عوض الإبانة ، والإيضاح .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم السلام على سيد الأنام وحيب الملك العلام سيد الأولين والآخريين المبعوث رحمة للعالمين أبي الزهراء محمد (ص) وعلى آله الغر الميامين (ع) .

أمّا بعد ، فقد تضمن القرآن الكريم

التفت الألويسي في تفسيره روح المعاني إلى أن القرآن الكريم اشتمل على مجموعة من الأساليب اللغوية التي تفيد معنى التحقير ، وتوقف على أثر السياق في الكشف عن ذلك .

إنّ تلك الأساليب التي ذكرها الألويسي جاءت مبنوثة في تفسيره ولم يفردها حيزاً واحداً منه وتمثل هذه الأساليب اللغوية بما يأتي : أولاً استعمال (ما) الموصولة بدل (من) ، ثانياً إيراد الاسم الظاهر بدل المضمّر ثالثاً استعمال اسم الإشارة الدال على القريب ، رابعاً

حرف الجر (من) ومجروره ، سادساً زيادة (ما) ، سابعاً خروج الاستفهام إلى معان مجازية ، ثامناً خروج فعل الأمر إلى معان مجازية ، تاسعاً الإبهام عوض الإبانة والإيضاح .

ختاماً أقول ، لقد سعت في هذا الجهد اليسير أن أخدم كتاب الله العزيز ، فإن أصبتُ شيئاً من ذلك فبتسديد الله تعالى وتوفيقه ، وإن زلت قدمي عن جادة الصواب فأسأل الله جل شأنه العفو والمغفرة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

التمهيد / تعريف التحقير لغةً

واصطلاحاً

١ . التحقير لغة :

يقول الخليل في العين إنّ (الحقّر في كلّ المعاني الذلّة) ^(١) . ويذكر ابن فارس في مقاييسه أنّ ((الحاء والقاف والراء أصلٌ واحد، استصغارُ الشيء . يقال شيءٌ حقير، أي صغير . وأنا أحتقره: أي أستصغره)) ^(٢) ، وكرر ابن منظور ما قاله الخليل وأضاف ((والحقيرُ الصغير... وتَحَقَّرَتْ إليه نفسه تصاغرت، والتحقيرُ التصغيرُ والمُحقَّراتُ الصغائر)) ^(٣) .

أساليب لغوية مختلفة اشتملت على معانٍ متباينة ، ومن تلك الأساليب ما جاء دالاً على التحقير اعتماداً على قرينة السياق . وقد استطاع الألويسي بعقليته الفذة وذكائه الحاد واطلاعه الواسع على الموروثات التفسيرية واللغوية أن يكشف النقاب عنها مبيّناً ما يترتب عليها من معان قرآنية مقصودة . وعلى الرغم من ورود مادة التحقير مبثوثة في ثنايا تفسير روح المعاني إلا أنّها جاءت واضحة الملامح جلية المرامي ، ولهذا وسمتُ البحث بـ (التحقير في التعبير القرآني دراسة دلالية في تفسير روح المعاني) .

استلزمت المادة اللغوية المستخرجة من تفسيره أن أقسم البحث على تمهيد وتسعة محاور رئيسة ، جاء التمهيد مختصاً بتعريف التحقير لغةً واصطلاحاً ، على حين قسمتُ المحاور التسع على ما يأتي: أولاً استعمال (ما) الموصولة بدل (من) ، ثانياً إيراد الاسم الظاهر بدل المضمّر ثالثاً استعمال اسم الإشارة الدال على القريب ، رابعاً تنكير الاسم بدل تعريفه ، خامساً دلالة

من خلال النصوص المتقدمة نلاحظ بشكل واضح لا غبار عليه أنّ الدلالة المركزية لمادة (حقر) تتمحور حول الصغر والذلة والإهانة .

٢. التحقير اصطلاحاً :

لم أجد فيما اطلعت عليه من مصادر علوم العربية حُدًّا جامعًا مانعًا للتحقير ، بل إنني لم أعثر على موضوع مستقل للتحقير في تلك المصنفات ، وإنما جاء مبثوثًا في بعض صفحات مصنفاتهم ، ومنها تفسير روح المعاني . وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ التحقير الذي نحن بصدده ليس مرادفًا لمصطلح التصغير الوارد ذكره في كتب النحو والصرف القديمة الحديثة أفالتحقير باعتباره مصطلحًا صرفيًا ورد ذكره في كتاب سيبويه مرات عديدة ومنها ((هذا باب تحقير ما ثبتت زيادته من بنات الثلاثة في التحقير))^(٤) ، ومنها أيضا ((باب تحقير بنات الحرفين))^(٥) .

وبعد البحث والتنقيب وجدت أنّ موسوعة المصطلحات الإسلامية قد عرّفت التحقير تعريفًا يقرب إلى حد كبير من التحقير المقصود في هذه الدراسة ، إذ جاء فيها

التحقير ((إذلالُ الشَّخصِ وَتَصْغِيرُهُ وَالْأَسْتِهَانَةُ بِهِ))^(٦)، وهذا التعريف يطابق ما جاء في الموروث اللغوي. وانطلاقًا مما جاء في المادة اللغوية ، واتكأً على تعريف موسوعة المصطلحات الإسلامية أستطيع القول إنّ التحقير أثر دلالي يتج عن استعمال مجموعة من الأساليب اللغوية يُراد به تصغير المخاطب وتقليل قيمته وإهانته بصرف النظر عن كونه فردًا أو جماعة ، عاقلًا أو غير عاقل ، وهو لا يعني بالضرورة أن المحتقر قد أخطأ فيما صدر عنه من تصغير وإهانة للمحتقر .

أولاً / استعمال (ما) الموصولة بدل (من) :

عدل التعبير القرآني في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] ، من استعمال الاسم الموصول « مَنْ » الدال على العاقل غالبًا إلى استعمال « مَا » الموصولة التي تدل على غير العاقل في غالب الأحيان ، وذلك لنكتة بلاغية يقصدها ولدلالة دقيقة يتوخاها ، وهي بحسب ما ذُكر في

يعبر بها عن العقلاء تعظيماً إذا أريد الوصف))^(٨)، أي إن مجيء « مَا » عوض « مَنْ » في هذا التفاعل اللغوي أفاد التحقير والتقليل؛ لأن الله تعالى في هذا الموطن غلب غير العاقل على العاقل باستعمال « مَا » عوض « مَنْ »، وفي ذلك تحقير لمن يعقل؛ لأنه أصبح بحكم غير العاقل، ولكن هذا لا يعني عدم حصول العكس، أي مجيء « مَا » بدل « مَنْ » في سياق آخر لإرادة التعظيم والتبجيل.

ولم أجد أحداً من المفسرين فيما اطلعت عليه من كتب التفسير غير الألويسي صرح بذكر دلالة التحقير، فهذا ابن عادل حاول أن يجمع ما قيل في هذه المسألة من آراء، فقال وقوع « مَا » على العاقل هناله وجوه عدة: ((أحدها أنه أتى بـ « مَا » مراداً بها العاقل؛ لأنها مبهمَةٌ تقع على كل شيء... أو أريد به النوع؛ كقوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، أي النوع الطيب، أو أريد به العاقل مع غيره؛ لأن أكثر ما عُبِدَ من دون الله غير عاقل كالأصنام والأوثان

تفسير روح المعاني لإرادة التحقير، فقد ذكر الألويسي من بين ما ذكر أن استعمال « مَا » الموصولة بدل « مَنْ » في قوله تعالى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ يُراد به التحقير، قال: ((وقيل: إن المراد بـ « مَا » كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى كالأصنام وغيرها، فغلب ما لا يعقل على من يعقل تحقيراً))^(٧)، أي إن الله تعالى - في هذا المحل - ساوى بين مخلوقاته سواء العاقلة أم غير العاقلة؛ لأن حكمها واحد من حيث كونها خَلَقَ اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ، وهذه المخلوقات جميعها بعيدة كل البعد عن حقيقة الألوهية وكنهها، فكل مخلوق - عاقلًا كان أو غير عاقل - ضئيلٌ جداً تجاه الله تعالى ولا يستحق العبادة مهما علا شأنه وعُظمت مكانته.

وقد صرح الألويسي بإرادة التحقير في موطن ثانٍ، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، قال الألويسي: ((و « مَا » أقيمت مقام « مَنْ » إمّا تحقيراً لهم في مقام العظمة والكبرياء أو لاعتبار الوصف، فإن « مَا »

والكواكبِ والشَّجَرِ ، أو شبهه على أولِ أحواله؛ لأنه في أولِ حاله لا يُوصفُ بعقلٍ ، فكيف يُتَّخَذُ إلهاً معبوداً؟))^(٩) ، فلم يذكر ابن عادل التحقير ولم يشير إليه .

ويرى سيد قطب أن التعبير بـ « ما » بدل « من » في هذا الموضع مقصود ؛ ((ليدرج « المخلوقات » التي تُعبد كلها - بما فيها من العقلاء - في سلك واحد ؛ لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية ... ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام فيبعد أن يكون أحدٌ من خلق الله مستحقاً للعبادة؛ وهو لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً))^(١٠) ، فكلّ مخلوقات الله غير قادرة على الضر والنفع ، ولذلك فهي لا تستحق أن تكون ربّاً يُعبد .

وأرى أن ما ذكره الألويسي فيه رجاحة ؛ لأنه لما انحطت قيمة العاقل وانعدم تأثيره تساوى في ذلك مع غير العاقل ، ولذلك جاء الخطاب القرآني بـ « ما » مغلباً كفة غير العقلاء على كفة العقلاء ؛ تحقيراً لقدرة العقلاء على الضر والنفع ، وتقليلاً لاستطاعتهم تجاه

استطاعة الله تعالى وقدرته المطلقة .
ثانياً/ إيراد الاسم الظاهر بدل المضمير

جاء في روح المعاني عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف ٧٧] ، مانصه : ((تكرار الأهل والعدول عن «استطعاهم» إلى «استطعما أهلها» للتحقير وهو أحد نكات إقامة الظاهر مقام المضمير))^(١١) ، فالغاية المنشودة من إقامة الاسم الظاهر «أهلها» مقام المضمير - مثلما جاء في نص الألويسي - هي لإرادة التحقير .

ويرى الرازي في التفسير الكبير أن تكرار الاسم الظاهر «أهل» عوضاً من المجيء به مضمراً قد يكون للتأكيد^(١٢) ، ويعتقد الشوكاني أن إظهار «أهل» بدل إضماره ، يمتثل ثلاثة أمور هي : ((لزيادة التأكيد أو لكرهية اجتماع المضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم

فأبوا أن يضيفوهما))^(٣١) .
 إن الأصل في الكلام العربي أن يؤتى بالمضمرة بعد المظهر ، فيقال على سبيل المثال (قابلتُ محمدًا وسلمتُ عليه) ، وليس شائعًا في كلام العرب أن يقولوا : (قابلتُ محمدًا وسلمتُ على محمدٍ) ، بتكرار الاسم الظاهر (محمد) مرتين ، قال الزركشي عند حديثه في (الخروج على خلاف الأصل وأسبابه) ، ((واعلم أن الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة وأصل المحدث عنه كذلك ، والأصل أنه إذا ذُكر ثانيًا أن يُذكر مضمرةً للاستغناء عنه بالظاهر السابق))^(٤١) ، فعدم التكرار سببه الاستغناء بالاسم الظاهر الأول ، ويمكن أن يضاف إليه أيضًا لدفع ما ينتج عن التكرار من سامة وملافة في أغلب الأحيان .
 وتأسيسا على ما تقدم ، قد يقول قائل لماذا قيل ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعُوا أَهْلَهَا﴾ ، وكرر الاسم الظاهر «أهلها» ، في حين كان من الممكن أن يقال : (حتى إذا آتيا أهل قرية استطعاهم) ، من دون حاجة إلى تكرار الاسم الظاهر «أهلها» ،

ويبدو - والله العالم - أن ثمة غرضًا استدعى الخروج على هذا الأصل والعدول عنه ، وهذا الغرض مثلما جاء في نص الألويسي هو التحقير ، فتكرار الاسم الظاهر لما حقه أن يكون مضمرةً ؛ لتحقير أهل القرية وما صدر عنهم من امتناع عن إطعام من طلب منهم الإطعام .
 وقد وردت مخالفة الأصل لإرادة التحقير في آيات أخر ، منها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [البقرة : ١٦٨] ، فالأصل الإضمار بعد الإظهار ، أي أن يقال (ومن يتبع خطواته) لكن تكرار اسم الشيطان ثانية ، لإهانة الشيطان وتحقير شأنه . قال الزركشي وللخروج على خلاف الأصل أسباب ، منها قصد الإهانة والتحقير^(٥١) ، وذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ، وفي قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[المجادلة: ١٩] ، وفي قوله جل
شأنه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾
[الإسراء: ٥٣] ، وفي قوله ﴿وَكَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ
عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي
تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

فالخروج عن الأصل بتكرار الاسم
الظاهر مرتين في هذه الآيات كان
القصده منه التحقير والإهانة .

ثالثا / استعمال اسم الإشارة الدال
على القريب

التفت الألوسي في مواطن عدة من
تفسيره إلى أن أساء الإشارة عموماً
تستعمل أحياناً للتحقير، ولهذا
نجده حينها فسّر قوله تعالى: ﴿
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ
قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾
[آل عمران: ١١٧]، يقول: ((و«
مَا» موصولة والعائد محذوف، أي
ينفقونه، والإشارة للتحقير))^(٦١)،
أي إن اسم الإشارة «هذه» يدل
على تحقير الحياة الدنيا وتقليل
قيمة ما يُنفقونه فيها . وحين شرع
الألوسي بتفسير قوله تعالى: ﴿هَا

أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ
بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، قال
((والإشارة للتحقير والتنقيص))^(٦١)،
أي الإشارة بـ«هؤلاء» إلى المحاججين
فيه تحسيس وتحقير لهم .

وقد ذكر الألوسي في محل آخر
أن اسم الإشارة (أولاء) في قوله
تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ
وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]،
يراد به التحقير، ثم قال بعدها إن
التحقير وُظّف في هذه الآية للتوبيخ
، فكأن الله تعالى ازدري ببعض
المؤمنين الذين يتخذون بطانة من
المشركين ويحبونهم ؛ وذلك لظهور
خطئهم في ذلك الفعل^(٦١).

ويرى الألوسي أن إيراد اسم
الإشارة الدال على القريب خاصة
بدل الدال على البعد يحمل في بعض
السياقات القرآنية دلالة التحقير،
ومنه ما جاء في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ
لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] ،
قال: ((أراد (عليه السلام) ما هذه
الأصنام، إلا أنه عبر عنها بالتماثيل
تحقيراً لشأنها فإن التمثال الصورة

المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى ... وفي الإشارة إليها بما يشار به للقريب إشارة إلى التحقير أيضاً))^(٩١) ، فتحقير الأصنام جاء ، أولاً من التعبير عنها بالتمثيل الدال على تمثيلها بمخلوقات الله تعالى وأتم مجرد صورة لا روح فيها ، قال البيضاوي مفسراً الآية : ((تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع))^(٩٢) . وجاء التحقير ثانياً من الإشارة إليها بـ « هذه » المستعملة فيما يشار به إلى القريب ، ولو كان الأمر عظيمًا كما هو الحال بالنسبة لكتاب الله لاستعمل معه ما يدل على البعد ، قال تعالى مشيرًا إلى عظمة كتابه ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة ٢:] ، فاسم الإشارة (ذلك) ((فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف))^(٩٣) .

ويجدر بنا التنبيه على أن اسم الإشارة « ذلك » لا يستعمل في التعظيم دومًا ، بل يجيء في بعض

السياقات لقصد التحقير أيضًا ، قال الألوسي إن ((اسم الإشارة كما يفيد التعظيم يفيد التحقير كما في قوله تعالى ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ٢]))^(٩٤) ، وهذا يعني أن المدار في معرفة الدلالة المتوخاة لأية كلمة ومنها اسم الإشارة هو السياق ؛ لأنه المحدد الرئيس الذي يبت في الدلالة الدقيقة والقطعية لكل كلمة في أغلب الأحيان . وأضاف الألوسي عند تفسير آية سورة الماعون أن ((وضع اسم الإشارة موضع الضمير لدلالة على التحقير))^(٩٥) ، أي إن وضع « ذلك » بدل « هو » ؛ لقصد تحقير من يدع اليتيم .

ويعتقد الألوسي كذلك أن الإتيان باسم الإشارة دون الاسم الصريح يراد به التحقير أحيانًا وهذا ما ذكره حينما فسّر قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٨] ، قال : ((وفي الإشارة إليهم بـ « هؤلاء »

دون قوله « قومي » ونحوه تحقير لهم وتبر منهم لسوء حالهم))^(٩٦) ، إذ كان بإمكان الرسول أن ينسب

قومه إلى نفسه ويقول: (إنّ قومي لا يؤمنون) لكنّه لما لمس منهم عدم الإيمان بدعوته السّاوية عدل إلى استعمال اسم الإشارة «هؤلاء» تحقيراً لفعالهم وتصغيراً لهم وللتبرؤ منهم .

رابعاً/ تنكير الاسم بدل تعريفه :

صرّح الألوّسي في مواطن كثيرة من تفسيره عن التحقير المتأّتي من تنوين الأسماء، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧]، قال: ((وأياً ما كان فالظاهر مقابل الباطن وتنوينه للتحقير والتخسيس، أي يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً))^(٥٢)، ذكر الألوّسي أن تنوين لفظ (ظاهراً) يراد به التحقير والتخسيس، أي إنّ الناس لا يعلمون إلاّ شيئاً حقيراً ويسيراً من هذه الحياة الدنيا، وهو ما يتمتعون به ((من زخارفها وملذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهاكهم فيها وعكوفهم عليها))^(٦٢)، ويمكن

أن يقال كذلك إنّ علمهم يتعلق بكيف ((يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعيشون))^(٧٢).

وأحسب أن التحقير لم يأت من تنكير لفظ «ظاهراً» فقط، بل جاء أيضاً من الإبدال الواقع بين جملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجملة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، إذ يلحظ أنّ الجملة الأخيرة وقعت بدلاً من جملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الآية التي تسبقها، ومن ينظر لأول وهلة إلى هذا الإبدال قد يقع في إشكال ولبس، إذ كيف أخبر الله تعالى عنهم أولاً بأنهم لا يعلمون، وقال بعدها مباشرة يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ومعلوم أنّ عدم العلم -وهو الجهل- نقيض العلم، فكيف صح إبدال العلم من الجهل؟ وجواب ذلك، إنّ علمهم بظاهر من أمور الحياة الدنيا لا يعد علماً إذا ما قورن بالعلم المرتبط بالله تعالى، فهو علم حقير لا يُقام له وزن، فهو والجهل سيان لا فرق بينهما، قال الزمخشري: ((وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي

هذا الإبدال من النكته أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا)) (٨٢). وبذلك تحققت دلالة التحقير من اجتماع أمرين معاً، هما: مجيء « ظاهراً» نكرة، والإبدال الواقع بين جملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وجملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ومن مواطن التحقير الأخر التي ذكرها الألويسي، ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]، قال: ((وتنكير «شيء» كما قال غير واحد للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال، وإنما هو من قبيل ما ابتلي به أهل أيلة من صيد البحر، وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت في مثل هذا، كيف يثبت عند شدائد المحن ف «مَن» بيانية أي

بشيء حقير هو الصيد)) (٩٢). إن إيراد «شيء» نكرة في هذا السياق أفاد تحقير البلاء، وهذا يعني كما يقول الألويسي إن ابتلاء الصيد - الذي ابتلى الله تعالى به من آمن - هو بلاء هيئ وليس بلاءً عظيماً كغيره من البلاءات التي يصعب على الإنسان الثبات فيها، ومن لم يستطع أن يثبت ويتجاوز هذا البلاء الهيئ، فكيف به عند حدوث بلاء أعظم وأشد وأخطر. ولم يكتف الألويسي بما ذكره من دلالة تنكير (شيء) على التحقير، بل صرح أيضاً بأن (من) البيانية تفيد التحقير كذلك، والمراد كما يقول: يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء حقير هو الصيد.

ولربما يقول أحدهم، ما تقول في مجيء (شيء) منكرة ويتبعها حرف الجر (من) في قوله جل شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] أليست هذه الصيغة دالة على أن البلاء عظيم وليس هيئاً؟ وجواب ذلك، إن البلاء بشيء

من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات يعد بلاء كبيراً مقارنة ببلاء الصيد، لكن هذا البلاء صغير أيضاً؛ لأنه وقع بشيء قليل من الخوف ولم يقع في الخوف كله، ووقع بشيء قليل من الجوع ولم يقع في الجوع كله وهكذا بالنسبة لما تبقى من بلاء، وهذا يعني أن مجيء (شيء) نكرة في هذه الآية بمساعدة (من) أفاد أن البلاء وقع في بعض صغير، ولم يقع في كل كبير، ولو افترضنا أن الله تعالى لم يقل (بشيء من)، وقال: (ولنبلونكم بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات)، لكان حتماً حجم البلاء أكبر وأعظم؛ لأنه حينها سيقع في كل، ولن يقع في بعض، وهنا يجب أن التفت إلى ((أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل، بالنسبة إلى مقدور الله تعالى وأنه تعالى قادر على أن يجعل ما يتليهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول، وأنه مهما اندفع عنهم ما هو أعظم في المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل لطفاً بهم ورحمة))^(١٣).

إن من ينظر في آية ابتلاء الصيد يلحظ أنه بالإمكان أن يقول الله تعالى: (ليلبونكم بصيد) من دون أن يقول (ليلبونكم بشيء من الصيد)، وهذا يعني أن إيراد (بشيء من) جاء لمعنى مخصوص، هو لتحقير حجم هذا البلاء وتصغير قيمته. خامساً / دلالة حرف الجر (من) ومجروره

يرى الألوسي أن حرف الجر «من» ومجروره في قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، يُراد به التحقير، قال: ((وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ: ﴿اتَّخَذُوا﴾، و«من» ابتدائية على معنى أن اتخذهم إياها مبتدأ من أجزاء الأرض كالحجارة وأنواع المعادن، ويجوز كونها تبعيضية... وأياً ما كان فالمراد التحقير لا التخصيص))^(١٣)، فبعد أن كشف الألوسي النقاب عن معنى «من» وأنها قد تفيد الابتداء أو التبعية، قال بضرس قاطع إن «من» مهما تحتمله من معنى، فالمراد بقوله تعالى ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو التحقير وليس التخصيص.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]
؟ [وجوابه إِنَّ الأرض آية عظيمة
من آيات الله الدالة على استحقاقه
للعبادة دون كل ما سواه، ولكن
جاز وصفها بالحقارة والصغر وقت
نأى كثير من البشر عن عبادة
الواحد الأحد، ويممَّ جبهته لعبادة
آلهة صُنِعَت من بعض مكونات
الأرض كالخشب والحجارة والأصنام
، فإذا كانت الأرض بعظمتها حقيرة
تجاه الله تعالى، فكيف بما صنع من
بعض مكوناتها .

وقد ورد في كتاب الله الكريم آيات
كثيرة تؤكد أن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [الأنعام :
١٢٠]، بل جاءت بعض الآيات
مُصَاغَةً بأسلوب الاستفهام تأكيداً
لذلك المعنى، قال تعالى: ﴿قُلْ
لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ
لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢]، فكل شيء ملك
للَّهِ وحده، وما كان مُلْكًا له فهو
صغير قبالة، ولا يستحق على أي
وجه أن يقرب به، فكيف بعبادته
من دون مالكة ومنشئه .

ولم يكن الألوسي بدعاً من المفسرين
في هذا الرأي، بل سبقه إليه
البيضاوي، قال: ((﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾
صفة لآلهة أو متعلقة بالفعل على
معنى الابتداء وفائدتها التحقير دون
التخصيص))^(٢٣)، ثم لحق بركب
البيضاوي أبو السعود ومحمد
الشوكاني في تفسيريهما^(٣٣).

إنَّ سبب التحقير لانتهاذ آلهة من
الأرض يعود إلى أن الأرض وما
فيها وما عليها هو من خلق الله
تعالى، فكيف جوز هؤلاء الضالون
لأنفسهم أن يكون الرب من أرضٍ
خلقها هو سبحانه، وهي حقيرة
صغيرة أمام ملكوته الأعظم، وقد
دل حرف الجر «من» ومجروره «
الأرض» على التحقير بمساعدة
السياق القائم على الاستفهام
الإنكاري، ف «أم» في بداية الآية
الكريمة ((للإضراب عما قبلها
والاستفهام على وجه الإنكار لما
بعدها))^(٤٣).

وربَّ سائل يسأل، كيف جاز
وصف الأرض بالحقارة والصغر
، وقد ساقها الله تعالى آية كبرى
تدل على عظيم خلقه، قال تعالى:

سادساً / زيادة (ما) :

قد ترد «ما» تأتي في الكلام زائدة لغرض التحقير والتقليل ، ومن ذلك قول العرب : (أكلتُ شيئاً ما) ، أو قولنا : (شربتُ شيئاً ما) ، ف «ما» في نحو هذا السياق تفيد تحقيراً وتقليلاً ، والمعنى : أكلتُ شيئاً قليلاً ، وشربتُ شيئاً قليلاً ، قال الألويسي في تفسير قوله تعالى : ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] ، ((أي هم جند إلخ ، فجند خبر مبتدأ محذوف مقدر مقدماً كما هو الظاهر و«ما» مزيدة ، قيل للتقليل والتحقير نحو : أكلتُ شيئاً ما))^(٥٣) ، لكنّ الألويسي لم يكتف بهذا الرأي وأورد رأياً آخر مفاده أن مجيء «ما» الزائدة قد يفيد أيضاً التعظيم والتكثير ، إذ جاء في تفسيره : ((وقيل للتعظيم والتكثير ، واعتراض بأنه لا يلائمه ﴿مَهْزُومٌ﴾ وأجيب بأن الوصف بالعظمة والكثرة على سبيل الاستهزاء))^(٦٣) ، وهنا يرد إشكال على الألويسي هو : كيف تكون «ما» للتعظيم والتكثير وقد ذكرت مسبقاً أنّها للتحقير والتقليل ؟ وجواب ذلك مثلها

ذكر الألويسي إنّها ((بحسب اللفظ عظمة وكثرة وفي نفس الأمر ذلة وقلة))^(٧٣) .

وبناءً على ما تقدم تكون «ما» حرفاً مزيداً يراد به التحقير وليس اسماً ، وهذا ما ذهب إليه البيضاوي وأبو السعود وغيرهما^(٨٣) .

ويرى الطبري أن «ما» اسم موصول ، جاء في تفسيره : ((و«ما» في قوله ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ صلة))^(٩٣) ، وأحسب أن حملها على الصلة فيه نظر ؛ لأن تفسير «ما» بمعنى الذي لا يوائم سياق الآية الكريمة . ويعتقد الزمخشري أنّها حرف مزيد يفيد التعظيم فحسب ، ورد في الكشاف ((«ما» مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام))^(١٠٤) .

وذهب الثعالبي إلى أنّها حرف مزيد تفيد التوكيد والتخصيص ، قال : ((«وما» في قوله : ﴿جُنْدٌ مَا﴾ زائدة مؤكّدة ، وفيها تخصيص))^(١٤) ، وشايعة ابن عطية الأندلسي بقوله : ((و«وما» في قوله : ﴿جُنْدٌ مَا﴾ زائدة مؤكّدة وفيها تخصيص))^(٢٤) .

، فهم مجرد جند قليلين مهزومين ، فجاء وصفهم بـ «ما» الدالة على القلة تحقيرا لهم وتقليلًا لكثرتهم .
سابعًا/ خروج الاستفهام إلى معان مجازية :

يخرج الاستفهام في معظم الآيات القرآنية لمعان مجازية عديدة ، منها على سبيل التمثيل لا الحصر : التوبيخ ، والتقريع ، والتقريع ، والتعظيم وغير ذلك ، وقد جاء في تفسير روح المعاني أن الاستفهام في قوله تعالى : ﴿مَنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس ١٨] ، خرج لمعنى التحقير ، قال الألوسي مفسرًا هذه الآية : ((شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة من إخلاله بذلك ، والاستفهام قيل للتحقير وذكر الجواب أعني قوله تعالى ﴿مَنْ نُطْفَةِ خَلَقَهُ﴾ [عبس ١٩] ، لا يقتضي أنه حقيقي ؛ لأنه ليس بجواب في الحقيقة ، بل على صورته وهو بدل من قوله سبحانه ﴿مَنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ وجوز أن يكون للتقريع

وأجاز ابن عادل في «ما» وجهين ((أحدهما : أنها مزيدة . والثاني : أنها صفة لجند على سبيل التعظيم للهزء بهم أو للتحقير)) (٣٤) .

والراجح فيما أعتقد جعل «ما» اسمًا نكرة صفة لـ «جند» بدلًا من عدّها مزيدة ، ولا سيما أن هذا الوجه يغنينا عن القول بالزيادة في القرآن الكريم . ويبدو لي أن دلالة «ما» على التقليل والتحقير واضحة جلية ، ويعضد ذلك سياق الآيات المباركات الذي جاء بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي إذ يقول تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلَيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ٩-١١] ، ف ((«أم» مشعرة باستفهام بعدها هو للإنكار والتوبيخ ؛ وذلك لإنكار قولهم ﴿أَوْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨])) (٤٤) ، فجاء جواب الاستفهام الإنكاري بأن هؤلاء الكافرين ليس عندهم خزائن رحمة الله تعالى ، وليس لهم ملك السموات والأرض وما بينهما

والتحقير مستفاد من شيء المنكر ،
وقيل التحقير يفهم أيضا من قوله
سبحانه ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إِنْخ ، أي من
أي شيء حقير مهين خلقه من نطفة
مذرة خلقه فقدره فهيأه لما يصلح
له ويليق به من الأعضاء)) (٥٤).
لقد تمحور كلام الألووسي في هذا
النص على معنى التحقير ، لذا
ذكره أربع مرات ، بدءاً بقوله
(والاستفهام قيل للتحقير)) ثم
قوله ((وجوز أن يكون للتحقير
والتحقير مستفاد من شيء المنكر)) ،
ثم قوله بعد ذلك ((وقيل التحقير
يفهم أيضا من قوله سبحانه ﴿مِنْ
نُطْفَةٍ﴾)) ، ثم قوله مبينا معنى
الآية ((أي من أي شيء حقير مهين
خلقه من نطفة مذرة خلقه)).
وهذا يعني أن التحقير لم يأت من
الاستفهام فحسب ، بل تآصرت
مجموعة عوامل لغوية لتجعل سياق
الآيات يتمركز حول معنى التحقير.
ويجدر القول ، إن الألووسي لم يكن
أول القائلين بخروج الاستفهام
في الآية إلى معنى التحقير ، فقد
صرح البيضاوي قبله بذلك قائلاً :
(الاستفهام للتحقير ولذلك أجاب

عنه بقوله : ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ
فهيأه لما يصلح له من الأعضاء
والأشكال)) (٦٤).

ويعتقد ثلثة من المفسرين ومنهم مثلا
البغوي والشوكاني أن الاستفهام قد
خرج لمعنى التقرير فقط ولم يشير وا
إلى التحقير مطلقاً (٧٤).

ويرى ابن عطية الأندلسي أن
الاستفهام في الآية يراد به زيادة
التقرير في التحقير ، إذ جاء في تفسيره
:(قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

﴾ استفهام على معنى التقرير على
تفاهة الشيء الذي خُلِقَ الإنسان
منه)) (٨٤). وهذا ما ذهب إليه

الرازي بقوله : ((وهو استفهام
وغرضه زيادة التقرير في التحقير
... ثم أجاب عن ذلك الاستفهام

، بقوله : ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ ، ولا
شك أن النطفة شيء حقير مهين
والغرض منه أن من كان أصله

من مثل هذا الشيء الحقير فالنكير
والتجبر لا يكون لائقاً به)) (٩٤).
إن من ينظر في الآية -محل البحث-

يلحظ أنها لم تبتدئ باستفهام
حقيقي يُتغنى منه الجواب ؛ لأن الله
جل شأنه لا يحتاج جواباً فهو العالم

تَكْفُرُونَ ﴿[يس ٦٣-٦٤]، قال ((﴿صَلُّوْهَا الْيَوْمَ﴾ أمر تحقير وإهانة ، كقوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ﴾ [الدخان : ٤٩] الخ ، أي قاسوا حرها في هذا اليوم الذي لم تستعدوا له))^(١٥) ففعل الأمر (اصلوها) دال على تحقيرهم والتنكيل بهم وإهانتهم ؛ لأنهم كانوا في الحياة الدنيا يكفرون بالله تعالى ولا يؤمنون بوجود جهنم التي وعدوا بها . وما ذكره الألويسي سبقه إليه أبو حيان الأندلسي وأبو السعود والشوكاني الذين قالوا إن هذا الأمر ((أمر تنكيل وإهانة))^(١٥) .

وبعد التدبر ، يمكن أن يلحظ القارئ الكريم أن النظم القرآني أعطى لفعل الأمر «اصلوها» دلالتين مجتمعتين معاً ، الأولى حقيقية تفيد الوجوب والإلزام ، أي وجوب أن يقاسي الكافرون نار جهنم ؛ لأن فعل الأمر كما هو معلوم إذا كان صادراً من العالي إلى الداني فهو يدل على الوجوب . والدلالة الثانية للفعل «اصلوها» مجازية ، جاءت من اشتغال فعل الأمر على دلالتيه التحقير والإهانة ، كما قال الألويسي .

بكل شيء كائنٍ أو لم يكن ، ومن ذلك خلق الإنسان ، وإنما ابتدأت الآية باستفهام مجازي لا يُراد منه الجواب ، ومع ذلك ورد قوله تعالى ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ جواباً للاستفهام المجازي خلافاً للأصل ؛ وفي ذلك نكت بلاغية مقصودة ، هي زيادة التأكيد على معنى التحقير الورد في الاستفهام المجازي ، فالإنسان مخلوق من نطفة حقيرة نجسة ، ومن كان هذا أصله فليس له أن ينكر شيئاً على من خلقه ، وقد وظف القرآن الكريم الاستفهام المجازي وجوابه المراد بهما التحقير ، لبيان تلك الحقيقة والتأكيد عليها ، لأن شأن كثير من الناس أن ينسى أو يتناسى حقيقة خلقه ويمضي حياته معانداً لله تعالى .

ثامناً / خروج فعل الأمر إلى معان مجازية

تردد دلالة التحقير باستعمال فعل الأمر مثلما وردت من خلال استعمال الأسماء ، وقد ذكر الألويسي ذلك صراحة حين تعرض لتفسير قوله تعالى ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ

وتقريعاً على ما كان يزعمه))^(٢٥) ،
مساقاة للتحقير والإهانة والاستهزاء
والتقريع .

تاسعاً / الإبهام عوض الإبانة
والإيضاح

يكتنف بعض التعبيرات القرآنية
إبهامات قائمة على أسس نحوي، وهذه
الإبهامات - من دون جرم - مقصودة
لمعانٍ منشودة، ومن تلك المعاني
التحقير، يقول الألويسي مفسراً
قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ
هُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾
[يونس: ٨٠]، ((أي ما ثبتتم واستقر
رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من
أصناف السحر))^(٣٥)، وقال كذلك
: ((و«مَا» موصولة والجملة بعدها
صلة، والعائد محذوف أي ملقون
إياه، ولا يخفى ما في الإبهام من
التحقير والإشعار بعدم المبالاة))
^(٤٥)، فالألويسي يرى أن النص القرآني
وظّف الاسم الموصول «مَا» وجملة
الصلة وعائدها المحذوف طلباً
للإبهام، وأن الآية الشريفة لم تحدد
الشيء الملقى حجماً أو نوعاً أو عدداً
، بل ولم تذكر أية صفة من صفاته ؛
لأن ما ألقى مهما كان عظيماً في عيون

إن صيغة فعل الأمر ولا سيما الواردة
في القرآن الكريم تستعمل لدلالات
مجازية مختلفة فضلاً عن الدلالة
الحقيقية لها وهي الطلب، وهذه
الدلالات المجازية تستفاد حتماً من
قرائن الكلام وسياقه، وهذا ما
حدث في الآية موضع البحث، فقد
أسهم النظم القرآني في إضفاء معنى
جديد على الفعل «اصلوها»، فضلاً
عما تضمنه في أصل وضعه .

وما قيل عن «اصلوها»، يقال عن
فعل الأمر «ذق» في قوله تعالى : ﴿
ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ، فإن
البناء اللغوي الفريد للقرآن الكريم
وهبه دلالاتي التحقير والإهانة كما
قال الألويسي ولو اقتطعت هذه
الآية المباركة من سياقها القرآني ،
لأصبح فعل الأمر «ذق» وما تبعه
دالين على التعظيم والمدح، لكن
تفاعل ألفاظ هذه الآية مع ألفاظ
قوله تعالى ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ
مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ، في الآية التي
تسبقها قلب المراد إلى النقيض
تماماً، وأصبحت الآية بحسب نص
الألويسي المتقدم ونصه الحالي الذي
يقول فيه : ((قولوا له ذلك استهزاءً

السحرة وكبيراً في اعتقادهم فهو - عند الله تعالى وعند رسوله موسى (عليه السلام) - حقير لا يُعبأ به وصغير لا يُنظر إليه ، وضئيل لا يُكترث لأمره .

ويجدر بنا الذكر أنّ ثلثة من المفسرين أشاروا إلى هذا المعنى ، فقد ورد في تفسير البحر المحيط: ((وفي قوله ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ استطالة عليهم وعدم مبالاة بهم وفي إيهام ما أنتم ملقون تخسيس له وتقليل وإعلام أنه لا شيء يلتفت إليه))^(٥٥) ، وهذا النص يبين دلالة التحقيق بشكل واضح لا يدخله الريب ولا يخالطه الشك .

وجاء في تفسير السعدي: ((ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق))^(٦٥) ، وورد أيضاً في تفسيره ألقوا ((أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئاً وذلك لأنّه جازم بغلبته، غير مبال بهم، وبها جاءوا به))^(٧٥) ، وقول السعدي ((غير مبال بهم ووبها جاءوا به)) يدل على تحقيق واستصغار ما جاؤوا به .

وقد أشار ابن عاشور أيضاً إلى معنى التحقيق بقوله ((و﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ قُصِدَ بِهِ التعميم البدلي أي شيء تلقونه ، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ في إظهارهم))^(٨٥) .

وأحسب أنّ الخطاب القرآني في هذا الموطن يهدف إلى إبراز قدرة الله تعالى المطلقة وأن كل شيء دنيوي دونها ولا يقرن بها ، بل هو حقيرٌ إزاءها ، ولذا لم يُحدد الملقى ، ولو جيء به محددًا لما تكشفت جلية تلك القدرة من جهة ، ولما تحقق ذلك التحقيق من جهة ثانية ؛ لأنّ التحقيق في هذا الموطن وفي هذا السياق قائم على إبراز القدرة ، فلو افترضنا أنّ الله جلّ شأنه لم يستعمل الاسم الموصول وصلته مخدوفة العائد ، وقال لهم من دون إيهام على لسان نبيه موسى (عليه السلام) : (ألقوا جبالكم وعصيكم) ، لتحدد ما يلقونه بالجبال والعصي ، والتحديد يوحى لفرعون وسحرته بأن قدرة الله ليست مطلقة ، إذ بإمكانهم أن يقولوا لموسى مرأً وجدالاً وعناداً لو كان ربك قادراً على كل شيء ،

ويصغرُ أمامه كلُّ شيءٍ لمَّ حدد ما يلقيه السحرة بالحبال والعصي ، فالقادر المقدر لا يحدد شيئاً من ذلك ؛ لأن بإمكانه أن يقضي على كل ما يلقي به السحرة سواء أكان جبلاً أو عصياً أو أي شيء سواهما . إنَّ المتفحص والمتأمل في طريقة رصف ألفاظ هذه الآية والآيات التي تسبقها والتي تليها يلحظ أن فرعون لم يأمر أن يؤتى إليه بكل ساحر فقط ، بل اشترط من خلال الصفة أن يكون الساحر المؤتى به عليماً ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس: ٨٠] ، قال السعدي : ((أي ماهر بالسحر متقن له فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم)) (٥٩) ، وفرعون بهذا كان يُجشِّد أقوى ما عنده من أدوات حجاجية كي يثبت بطلان ما جاء به موسى ، وهذا التحشيد بحسب ما يمليه المنطق العقلاني يستدعي من نبي الله موسى (عليه السلام) تحشيداً يماثله أو يقرب منه على أقل الاحتمالات ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل

البتة ، وجاء خطاب موسى محقراً لكل ذلك التحشيد ، بقوله (عليه السلام) ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ ، وهذا التحقير لما يلقونه كان أسه إيمان موسى وثقتَه بأن من أرسله قادر مستطيع على دحر كل ما يأتي به السحرة ، بل إنَّ كل ما يؤتون به حقيراً لا وزن له تجاه قدرة الله تعالى ، ولهذا قال ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١-٨٢] .

الخاتمة

بعد هذا التطواف النافع في رياض آيات الله وصل البحث إلى قطف ثماره اليانعة ، وهي :

1. لم يكن الألوسي أول من التفت إلى التحقير الوارد في بعض النصوص القرآنية بيد أنه تميز من غيره من المفسرين في كونه لم يمر عليه مروراً سريعاً وعابراً ، بل وقف عليه موضعاً أدواته شارحاً دلالاته سابراً أغواره ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإنَّ الألوسي تقصى كل

الآيات الدالة على التحقير ، على حين اقتصر غيره من المفسرين على موطن أو موطنين ، ولم يشيروا إلى المواطن الأخر التي ذكرها الألوسي .
2. لم يضع الألوسي كغيره من المفسرين حداً للتحقير ، ولم يفرد له مكاناً خاصاً به في تفسيره .

3. بين الألوسي أنّ للسياق أثراً كبيراً وفعالاً في تحديد التحقير والكشف عن خباياه .

4. لا يمكن أن يعد التحقير أسلوباً لغوياً قائماً بنفسه كأسلوب النفي أو الاستفهام مثلاً ، بل هو أثر دلالي لاستعمال مجموعة من المسالك الأسلوبية والأساليب الخطابية .

5. تعددت الأساليب المراد بها التحقير التي ذكرها الألوسي ، فمنها ما وقع من خلال الأسماء ومنها ما وقع من خلال الأفعال ، ومنها ما جاء عن طريق الحروف .

6. جاءت بعض أساليب الدالة على التحقير مخالفة لبعض الأصول العربية في الكلام ، ومن ذلك تكرير الاسم الظاهر بدلا من الإتيان بضميره في المرة الثانية .

الهوامش :

- ١- العين : ٤٣/٣ ، (حقر) .
- ٢- مقياس اللغة : ٩٠/٢ ، (حقر) .
- ٣- لسان العرب : ٢٠٧/٤ ، (حقر) .
- ٤- كتاب سيبويه : ٤٤٣/٣ .
- ٥- المصدر نفسه : ٤٤٩/٣ .
- ٦- موسوعة المصطلحات الإسلامية ، شبكة الأنترنت ، رابط الصفحة : <https://terminologyenc.com/ar/browse/term/٦٧٧١٢> .
- ٧- روح المعاني : ١٦٩ / ٢٣ .
- ٨- المصدر نفسه ٢٨٤ / ١ .
- ٩- اللباب في علوم الكتاب : ٤٦٥ / ٧ .
- ١٠- في ظلال القرآن : ٩٤٦ / ٦ .
- ١١- روح المعاني : ٤ / ١٦ .
- ١٢- ينظر : التفسير الكبير : ١٣٣ / ٢١ .
- ١٣- فتح القدير : ٣٠٣ / ٣ .
- ١٤- البرهان في علوم القرآن : ٤٨٤ / ٢ .
- ١٥- البرهان في علوم القرآن : ٤٨٦ / ٢ .
- ١٦- المصدر نفسه : ٣٦ / ٤ .
- ١٧- المصدر نفسه : ١٩٥ / ٣ .
- ١٨- ينظر المصدر نفسه : ٣٩ / ٤ .
- ١٩- ينظر المصدر نفسه : ٥٩ / ١٧ .
- ٢٠- تفسير البضاوي : ٩٧ / ٤ .
- ٢١- تفسير أبي السعود : ٢٣ / ١ .
- ٢٢- روح المعاني : ١٤٠ / ٣٠ .
- ٢٣- المصدر نفسه : ٢٤٢ / ٣٠ .
- ٢٤- المصدر نفسه : ١٠٨ / ٢٥ .

- ٢٥- المصدر نفسه : ٢١ / ٢١ .
- ٢٦- المصدر نفسه .
- ٢٧- تفسير البغوي : ٣ / ٤٧٧ .
- ٢٨- الكشاف : ٣ / ٤٧٣-٤٧٤ .
- ٢٩- روح المعاني : ٧ / ٢١ .
- ٣٠- المصدر نفسه .
- ٣١- المصدر نفسه :
- ٣٢- تفسير البيضاوي : ٤ / ٨٧ .
- ٣٣- تفسير أبي السعود : ٦ / ٦١ ، وفتح القدير : ٣ / ٤٠٢ .
- ٣٤- التسهيل لعلوم التنزيل : ٣ / ٢٤ .
- ٣٥- روح المعاني : ٢٣ / ١٦٩ .
- ٣٦- المصدر نفسه : ٢٣ / ١٦٩ .
- ٣٧- المصدر نفسه : ٢٣ / ١٦٩ .
- ٣٨- تفسير البيضاوي : ٥ / ٣٨ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٧ / ٢١٦-٢١٧ .
- ٣٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) : ٢٣ / ١٣٠ .
- ٤٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٤ / ٧٧ .
- ٤١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) : ٤ / ٣١ .
- ٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٤ / ٤٩٥ .
- ٤٣- اللباب في علوم الكتاب : ١٣ / ٣٤٣ .
- ٤٤- التحرير والتنوير : ١٢ / ١٩٦ .
- ٤٥- المصدر نفسه : ٣٠ / ٤٤ .
- ٤٦- تفسير البيضاوي : ٥ / ٤٥٣ .
- ٤٧- ينظر : فتح القدير : ٥ / ٣٨٤ ، وتفسير البغوي : ٤ / ٤٤٨ ، والتسهيل لعلوم التنزيل : ٤ / ١٧٩ .
- ٤٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٥ / ٤٣٨ .
- ٤٩- التفسير الكبير : ٣١ / ٥٥ .
- ٥٠- تفسير روح المعاني : ٢٣ / ٤١ .
- ٥١- التفسير الكبير : ٢٦ / ٨٨ ، تفسير أبي السعود : ٧ / ١٧٦ ، وفتح القدير : ٤ / ٣٧٨ .
- ٥٢- روح المعاني : ٢٥ / ١٣٤ .
- ٥٣- روح المعاني : ١١ / ١٦٦ .
- ٥٤- المصدر نفسه .
- ٥٥- تفسير البحر المحيط : ٥ / ١٨١ .
- ٥٦- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ٥٩١ .
- ٥٧- المصدر نفسه : ٥٩١ .
- ٥٨- التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٤ .
- ٥٩- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ٣٧١ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .
٢. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١هـ .
٣. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر .
٤. تفسير البغوي، البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار النشر: دار المعرفة - بيروت .
٥. تفسير البيضاوي، البيضاوي، دار النشر: دار الفكر - بيروت
٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) عبد الرحمن السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م
٧. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م .
٨. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، تحقيق عادل أحمد، وعلي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
٩. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط: ١ - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد الطبري، دار النشر: دار الفكر - بيروت ١٤٠٥
١١. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .
١٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت
١٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، الناشر: دار الشروق القاهرة، ط ٣٢، ١٤٢٣ - ٢٠٠٣ .
١٥. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد الغرناطي الكلبلي، دار النشر: دار الكتاب العربي - لبنان، ط: ٤، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
١٦. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار النشر: دار ومكتبة الهلال،

العزیز، ابن عطیة الأندلسی، تحقیق: عبد السلام عبد الشافی محمد، دار النشر: دار الکتب العلمیة - لبنان، ط ۱، ۱۳۱۴ هـ - ۱۹۹۳ م.
۲۱. معجم مقایس اللغة، أحمد بن فارس بن زکریا، تحقیق: عبد السلام محمد هارون، دار النشر: دار الجیل - بیروت - لبنان، ط ۲، ۲۰۱۴ هـ - ۱۹۹۹ م.
شبكة الانترنت
موسوعة المصطلحات الإسلامية، شبكة الأنترنترنت، رابط الصفحة:
<https://terminologyenc.com/ar/browse/term/67712>

تحقیق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي.
۱۷. کتاب سیبویه، عمرو بن عثمان بن قنبر سیبویه، تحقیق: عبد السلام محمد هارون
دار النشر: دار الجیل - بیروت، ط ۱.
۱۸. الکشاف عن حقائق التنزیل وعیون الأقاویل فی وجوه التأویل، أبو القاسم الزمخشری تحقیق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بیروت.
۱۹. لسان العرب، محمد بن مکرم بن منظور، دار النشر: دار صادر - بیروت ط ۱.
۲۰. المحرر الوجیز فی تفسیر الکتاب

Abstract

In his interpretation of Ruh al-Ma'ani, Al-Alusi took into consideration the fact that the Holy Qur'an includes a set of linguistic patterns that convey the meaning of denigration, and he stopped on a trace in expressing that . Those patterns that Al-Alusi mentioned were embedded in his interpretation, and he did not mark out a single space for them. These linguistic methods or patterns are represented by the following: First, the use of relative pronoun (ما) ((what) instead of (من) (who), secondly, the inclusion of the explicit noun instead of the implicit, thirdly the ambiguity instead of explanation and clarification, fourth, the use of the common nouns style instead of the proper nouns,

fifth the use of the demonstrative pronouns that is used for nearby contexts, sixth, the addition of (ما) (what) seventh the use of the interrogative phrases to Figurative meanings, eighth, the use of the imperative verb in a figurative meanings, ninth the indication of the preposition (من) (from) and its genitive noun



إشكاليات متعلقة بأحكام المرأة في الشريعة الإسلامية القوامة على المرأة بين المنظر الفقهي والمنظر الحديثي *

الباحثة: ليندا محمد غدار

باحثة في جامعة القديس يوسف - لبنان

شبهات القوامة وإشكاليات متعلقة بأحكام المرأة في الشريعة الإسلامية ومبدأ العدالة والمساواة في إطار حقوق المرأة. كما سأتناول أيضاً وضع المرأة في النصوص التأسيسية، المرأة والقوامة في الإسلام، مرتكزات القوامة، التفضيل الإلهي والإنفاق. تعنيف المرأة كمكُون للقوامة، القوامة وحق المساواة.

الكلمات المفتاحية: القوامة، تعنيف المرأة، واجبات الرجل، طاعة المرأة، بما انفق، وصاية، تسلط.

* عمل جزئي متمم لمتطلبات شهادة الدكتوراه في جامعة القديس يوسف.

في بحثي هذا سوف اتناول موضوع قوامة الرجل على المرأة من منظور فقهي، ومنظور حديثي مبيتاً التأصيل الشرعي التقليدي للقوامة على المرأة، والرؤية الحديثة لحقوق المرأة الطبيعية التي لا تتعارض مع روح القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة الإسلامية التي فعلت القواعد الاخلاقية الكلية على الجزئية التي تتعارض مع حقوق المرأة الطبيعية، التي اوجدها الله قبل الاديان السماوية، كما ستتكلم عن واجبات الرجل تجاه المرأة، والإضاعة على وضع المرأة حول موضوع القوامة، وسوف أضيء على